المقاربة النقدية لعلاقة الوجود بالفكر
في الفلسفة الهيجلية
فيورباخ أنموذجا

أ. د. وزار محمد
أستاذ الفلسفة الحديثة
بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية - شعبة الفلسفة
جامعة أبي بكر بلقايد – تلمسان - الجزائر

المقدمة

تعد قضية الفكر وعلاقته بالوجود من أهم القضايا في الفلسفة وأكثرها حدّة، وهي مشكلة ذات أهمية كبيرة في الفلسفة الحديثة بصفة عامة وفلسفة هيجل على الخصوص، وفلسفة تأسست كلها على هوية الفكر بالوجود. إن طبيعة كل فلسفة تتحدد من خلال الإجابة عن السؤال المتفرع عن هذه العلاقة، هل الأسبقية الأنطولوجية للفكر أم للوجود؟. وحسب الجواب عن هذا السؤال بهذا الشكل أو ذاك يتحدد طبيعة المعسكر الذي تنتمي إليه كلَ فلسفة.

إن الذين يُؤكدون أسبقية الفكر، والعقل، والروح على الوجود، وعلى الطبيعة كانوا يسلمون في نهاية المطاف بخلق العالم من أي نوع كان، هؤلاء يُؤلفون معسكر المثالية. أما الذين يَعتبرون الوجود، والطبيعة، والعالم، والعنصر الأسبق أنطولوجيًا عن الفكر، وأن الفكر مشتقٌ منه وتابع له، هؤلاء ينتمون لمعسكر الفلسفات المادية.

جاءت هذه المحاولة للمقابلة النقدية بين عملاقين من عمالقة الفكر الفلسفي. هيجل رائد المثالية الألمانية وفيورباخ مؤسس الفلسفة المادية الأنثروبولوجية. إن هيجل جعل من الفكر الأولوية الأنطولوجية والمطلقة، غير أنه أراد من هذا الفكر أن يكون ديناميكيًا يجتازُ المراحل، ويتخطى العقبات. إن الفكر هو الحقيقة الواقعية للوجود، كما أنه الماهية الديناميكية للواقع ذاته. إن الإسهام الهيجلي قد ألغى الهوة بين المقولات الأنطولوجية للوجود الفعلي والمقولات المنطقية، أي مقولات الفكر. إن هذا التجسير الهوة بين العالم الموضوعي وقوانين الفكر بين الذات والموضوع هو عمادُ الحقيقة الأنطولوجية للواقع، وقد استطاع هيجل أن يبني نسقًا عقليًا محكمًا استوعب فيه شتى ضُروبْ المعرفة ما لم يستطع مذهب آخر في الفكر الحديث تحقيقه.

تتضح قيمة الفلسفة الهيجلية في قدرتها على توحيد الفكر بالواقع، الميتافيزيقا بالحياة وقدرتها على تحويل التعيينات الفكرية الخالصة للذات إلى تعيينات تاريخية، هكذا غدا الفكر مصدر الحياة وفاعلية الوجود. إن القدرة الخلاقة التي أضفاها هيجل للفكر عن طريق السلب مكنته من خلق الواقع وتعقيله، وإضفاء عليه الديناميكية اللازمة مما جعل منه الذات الفاعلة والخلاقة.

إن الصدارة الأولى في فهم العالم واستنباطه وتعقيله للفكر هي الذات الفاعلة في الطبيعة والروح. إن المثالية الهيجلية استكملت التراث الفلسفي الغربي الذي جعل من الذات حقيقة الوجود والأولوية المطلقة في فهم وتعقيل العالم. إن أهمية فيورباخ هو إنزال هيجل من

عرش الفلسفة وهو الذي فتح أمام اليسار الهيجلي إمكانية تجاوز الفلسفة التأملية القائمة على المصالحة بين الفكر المجرد والواقع في مقولة هيجل الشهيرة : "كل ما هو عقلي واقعي حقيقةً، وما هو واقعي عقلي حقيقةً "يلخص لويس ألتوسير دور فيورباخ في إخراج الهيجليين الشباب من مأزق الفلسفة النظرية الهيجلية: " هكذا قدمت مؤلفات فيورباخ لاضطراب الهيجليين الشباب الأدلة النظرية لخيبة أملهم، ولكنها أيضًا قدمت لهم الأدلة النظرية للأمل : فلسفة سمحت أن نُفَكرَ في التاريخ لأعقل التاريخ ومستقبل العقل في الوقت نفسه، فلسفة قطعت مع مسلمات التنظير الهيجلي واللاهوت مخلصةً في الوقت نفسه للمعنى العميق للعقلانية والدين الأصيلين."[1] لذا فيورباخ يحتل مكانة هامة في تاريخ الفلسفة الحديثة والمعاصرة، فهو ليس مجرد مرحلة ما بين ماركس وهيجل، بل عظمة فيورباخ أنه استطاع أن يُقدمَ نقدًا ممنهجًا متكاملاً وعميقًا لفلسفة هيجل، ويقدم في الوقت نفسه فلسفةً للمستقبل قائمة على التصور الأنثروبولوجي الذي يجعل من الإنسان المحتاج المتأمل القلب النابض لوحدة الفكر والوجود.

عضوٌ بارزٌ من اليسار الهيجلي انخرطَ بقُوة في نقض وتقويض أسس الفلسفة التأملية؛ الفلسفة الهيجلية، كما برزَ بشكل لافت ضمن التيار الاجتماعي الذي كان يهدف إلى تغيير الأوضاع القائمة آنذاك سياسيًا واجتماعيًا ودينيًا، خاصةً التيار الذي كان يستهدف نقد الفكر الثيولوجي.

إن تطور الفكر الثوري لكارل ماركس يدين بجوهره للفكر الفيورباخي المادي كما يدينُ من حيث المنهج للفكر الهيجلي. ماركس تقيد بشغف بالنقد الديني الجديد لفيورباخ وتصوره المادي، أي أولوية الطبيعة، والوجود على الفكر، وتحويله لماهية الله المطلقة إلى ماهية الإنسان نفسه، ماهية جنسه النوعي وحدها المطلق. لقد فتح أمام ماركس الطريق لبناء نسقه المادي وفكره الثوري من خلال نظريته المادية التاريخية. إن نصوص فيورباخ خاصةً كتابه الماهية المسيحية في تاريخ الماركسية، وكثير من التيارات الفلسفية الأخرى في القرن العشرين النص الفارق.

إن الماركسية ليست هي الفيورباخية على الإطلاق. إن الأصالة الفيورباخية تنبع من معينها الأصيل، لذا فأية دراسة علمية جادة لا بد لها أن تستقى مادتها من فكر فيورباخ الأصيل بمعزل عن التأثير الماركسي والأحكام المسبقة التي تجعل من فلسفته مجرد محطة

1 - Feuerbach, Ludwig : « Manifestes Philosophiques »,Textes Choisis(1839-1854), traduit de l allemand par louis althusser,puf,paris1973, « Introduction de traducteur », p.2

أولوية لفلسفة ماركس. لذلك لابد من النظر إلى هذه الأخيرة في استقلاليتها عن كل من الفلسفة الهيجلية والفكر الماركسي.

إن تأسيس فلسفة جديدة حسب فيورباخ يستدعي نقد أسس ميتافيزيقا الفلسفة القديمة وعلى رأسها فلسفة هيجل، أي هدم أُسس هذه الفلسفة بنقد طابعها اللاهوتي وسلب الشامل لمقولاتها، أي القلب العكسي لهذه المقولات، وإحلال مقولات الفلسفة الجديدة القائمة على التصور الأنثروبولوجي محلها. فيورباخ يرفض بشكل قاطع الهوية المجردة بين الفلسفة واللاهوت، بين الفكر والوجود، بين العقل المجرد والواقع من خلال هذه المقاربة الإشكالية تنبثق عنها جملة من التساؤلات التالية:

كيف أسس هيجل هوية الفكر بالوجود؟ وعلى أي منهج ونسق عقلي تحقق ذلك؟. إذا كانت فلسفة فيورباخ الأطروحة المناقضة للفلسفة الهيجلية، كيف أسسَ لعملية القلب العكسي لمقولات المنطق الهيجلي؟ كيف أسس للتعارض الهوياتي بين الفكر المجرد والوجود؟ ما طبيعة التصور الأنثروبولوجي الحسي الجديد للفلسفة والدين؟ ما التصور الجديد لهوية الفكر بالوجود في الفلسفة الفيورباخية؟.

١) المقاربة الفيورباخية النقدية لديالكتيك الوجود الخالص والعدم الخالص في المنطق الهيجلي

ما دامت الفلسفة في البحث في ما هو موجود، فعلاقة الإنسان بالوجود هي المشكلة الرئيسة في فلسفة فويرباخ وكما هو معروف أدت به إلى تبني وجهة النظر المادية: وحده المحسوس والملموس هو الحقيقي. للبرهنة على هذه النتيجة، فويرباخ ينطلق من الأطروحة الهيجلية التي تبتدئ بها رسالة علم المنطق وهي "جدلية الوجود والعدم" التي يستنبط من الوجود "الوجود الخالص" ومن العدم "العدم الخالص"،الوجود الخالص والعدم الخالص هما الشيء نفسه، هذا المقترح الأول هو المبدأ الأول الذي ينطلق منه المنطق الجدلي لا يمكن إلا أن يصدم فكر والذي يظهر على مستوى الفهم المباشر والتقليدي على أنه مقاربة متناقضة وباطلة.

الوجود المجرد وغير المحدد ليس وجودا قط. الوجود المحدد والملموس فهو ما يمكن أن نقابله بنقيضه، والذي هو أيضا لا يمكن إلا أن يكون إلا محددا. هذا الطرح النقيض لفكر هيجل حول الوجود الفعلي والوجود المجرد ؛العدم الحقيقي والعدم الزائف استمد أصله من إحساس الآني أي في اللحظة التي فيها أحس الوجود الذي يفنى. هذا الوجود الحقيقي الذي له الحياة والجسد. الشعور بالوجود مرتبط باللحظة التي يحس فيها الإنسان بحضور الشيء في المكان والزمان، إذ الشعور بالوجود هو الشعور بالشيئية.

فويرباخ يُردد في كتابه "نقد فلسفة هيجل" "الوجود الخالص ليس بوجود؛فقط الوجود المحدد هو الوجود." [1] يُضيف نقيض الوجود العام الوجود الخالص "ليس العدم"، إنما الوجود المحدد، الذي في الإحساس والشعور. وعندما يساوي هذا الوجود الملموس بالعدم فهذا قمة التناقض في مرحلة (الفهم) يستبدل الوجود الخاص بالوجود المتعين. حسب أنصار هيجل لا يمكن فهم سر الدياليكيك إلا من خلال الصيرورة بين العدم والوجود الخالص، فالوجود الخالص هو في هوية مع العدم.لكن الفهم يقول الوجود المحسوس والمتعين وحده الوجود. فيورباخ لا يناقش صحة الدياكلتيك المجرد، إنّما يناقش مسألة "الوجود الخالص" ليس وجودًا بحال من الأحوال، والمنطق الكلّي الهيجلي يقوم على أساس الوجود الخالص الخالي من كلّ تعين هو في هوية مع ضدّه أي العدم. إن هيجل يصر على أن اعتبار الوجود الخالص وجودًا يجعل المنطق يقوم على أساس واهٍ. مقولات المنطق، والوجود الخالص، والعدم هي مقولات تجريدية سلبية[2]. الوجود هو الوجود المباشر أي الطبيعة، الذات المفكرة والعارفة تجد أمامها حضور الموجود الطبيعي بدون توسط. الشعور هو شعور مباشر بشيء ما في المكان والزمان بدون توسط، أما الفكر فدائما هو حضور بالتوسط لتحديات الفكر لدي فهيجل يتجاهل الشعور المباشر لأنه بدون تحديد، فقط هو يعطي اعتبار لتحديدات الفكر لأنها بتوسط.

لدي فويرباخ ينتقد موقف هيجل من الشعور المباشر في أنه غير محدد، بينما يجعل للتوسط دور التحديد، فعند فويرباخ الشعور المباشر لا يمكن أن يكون مقيدا بالتحديد، لأنه ليس فكرا ولا يمر عبر التفكير[3]. لقد وضعت فلسفة هيجل على عاتقها تفسير العالم الواقعي، أي أنها وقعت في تناقض مميت عندما حددت بداية متناقضة مع هذا الواقع الملموس. يؤكد "هينري آرفون " موقف فويرباخ: إذ تستمر الفلسفة الهيجلية منغلقة على ذاتها، مُتَخذَة كنقطة انطلاق مطلقا من دون تحديدات، فإنها تقطع على نفسها قبليا الطريق الذي يقُود إلى الحيَاة الواقعية [4].

---

1 - Feuerbach « Manifestes Philosophique» Trad. Louis Althusser. Presses Universitaires de France, 1960. P.39

2 - Ludwig FEUERBACH, Manifestes Philosophiques (Contribution à la critique de la philos ophie de Hegel), trad. L. Althusser, PUF 1960, P. 47.

3- Sabot, Philippe : « Héritages de Feuerbach »,presses Universitaire Septentrion ,p. 24

4 - Henri ARVON, Ludwig Feuerbach ou la Transformation du Sacré, éd. cit., pp. 158-161

٢) مبدأ الهوية والوجود والفكر والنقد الفيويرباخي :

تنطلق الفلسفة الهيجلية من فرضية الهوية المطلقة بين الفكر والوجود، غير أن الوجود الهيجلي ليس إلا الفكر وهو في حالة التمايز الذاتي، إنه هوية الفكر مع ذاته وليست هوية بين الفكر والوجود، الأولوية دائمًا للفكر، وللروح على حساب الوجود العيني، أو الوجود الفعلي. االمثالية تجعل دائمًا كل ما هو ماثل في الوجود هو العقل. إن الطّبيعة هي حالة الاغتراب عن الذات، وكأن الطبيعة أقل شأنًا أو لا شأن لها بالنسبة للفكر. هكذا دائمًا الفلسفة النظرية تحط دائمًا من الطبيعة، ومن الحس وكأن الطبيعة ذلك المرض أو الداء الذي يجب العلاج منه.

الحقيقة موجودة كلها في الفكرة، لا في الطبيعة، الضرورة هي التي تفرض على الفكرة الاغتراب في الطبيعة لوعي ذاتها لذاتها. إن الطبيعة في فلسفة هيجل هي ذلك الآخر وهي المظهر فقط، هي البراني الذي لا حقيقة له، الحقيقة تكمن في معرفة الذات، والأنا، والفكرة، والفكرة لذاتها. وما هو واقعي في الحقيقة هو الذات بينما الموضوع هو التابع. هذه النظرة المختزلة في الفلسفة النظرية للطبيعة وقيمتها الذاتية نابعة من اللاهوت. يقول فيويرباخ: "من أجل تحويل الله إلى عقل في الفلسفة كان لا بد أن يُضفي على العقل نفسه طبيعة الكائن الإلهي والمجرد"[١].

إن الاختلاف بين الفكر والوجود، العقل والطبيعة هو اختلاف صوري، إنه اختلاف يحدث دائمًا لصالح الفكر وليس للوجود. تتباهى الروح الهيجلية بادعائها ملامسة الواقع المحسوس، بيد أن هيجل بدلاً من أن يربط الفكر النظري بما هو متعارض معه، فإنه لم يلجأ إلا إلى فكرة الواقع الملموس في تمثله البسيط. الفلسفة الهيجلية لم تستطع أن تتخلص من العيب الأساسي الموجود في كل الفلسفة الحديثة منذ ديكارت. إن التجاهل المتعمد لكل ما هو حسي في هذه الفلسفات نخلق هوة عميقة بينها وبين الإنسان وتجربته. إن الفلسفة هي هوية صورية مع ذاتها لا مع الواقع المحسوس. إن الأساس الذي يقوم عليه المنطق هو الوجود المجرد الذي ليس له أي مضمون، إنه بدون تعين، لذا ساوى هيجل بين هذا الوجود وبالعدم، وهنا تكمن المفارقة والخلل الأساسي في كل السيستام الهيجلي.

إن الوجود المجرد لم يعد وجودًا على الإطلاق. إن إفراغ الوجود من تعيناته لن يعودَ وجودًا، إن الوجود هو الوجود الذي يتضمن التعين. الوجود وحده الحقيقي الواقعي هو الوجود

1 - Ludwig Feuerbach « l'Essence de Christianisme» ;traduit de l allemand par Jean-Pierre Osier Gallimard.1968. P.49.

المتعين المحسوس، الموجود في إطار الزمان والمكان. إن الوجود الهيجلي هو العدم، فلم يعد الوجود كما يزعم هيجل يواجه العدم، بل إن حقيقة المقولة الأولى في فلسفة هيجل هي العدم في مواجهة العدم. هكذا ينهار المنطق الهيجلي كله مادام أساس هذا البناء منعدمًا، فالعدم لا ينتج إلا العدم. لذا ليس العدم هو نقيض الوجود المجرد، بل الوجود الحسي، الوجود المليء بالمحتوى الحسي، هذا الوجود المتعين الحقيقي الملموس هو المقولة الأولى، هو ما يُعارض العدم، لذا على الفكر أن يعود لا إلى الفكر، وإنما إلى الواقع الملموس إلى الآخر الحسي.

إن الفكر لا يتحقق من ذاته ومن صحته إلا عندما يواجه نقيضه، فقط في النقيض يستطيع الفكر أن يتأكد من واقعية أفكاره. إن النظرة التجريدية للواقع تستخدم الاستنباط العقلي من المعقول إلى المعقول، هذا المعقول ليس معقولية الواقع بل معقولية المعقول، معقولية التجريد. وإذا كان هيجل من استطاع دمج لحظات هذا الاستنباط في معقولية كلية، إلا أن هذه الكلية الشمولية كلية فارغة بدون محتوى حقيقي، وكأنها الجثة الهامدة لا حياة لها بعدما أُفرغت من دمها.

إن المنهج الهيجلي نسخة مشوهة للطبيعة، إنه يقلد الطبيعة لكن هذه النسخة المقلدة نسخة ميتة لا معنى لها. إنها تفتقر إلى الحياة، حياة الأصل والطبيعة[1]. الوجود ليس في الوحدة مع ضده، إنما في دحض هذا الضد تكمن الحقيقة. ليس الديالكتيك منولوجًا، إنما هو حوار النظرية مع الواقع التجريبي. إن أساس المثالية الهيجلية هو في هذا المنطق. إن هدم محتوى هذا المنطق هو باستخدام هذه الأدوات نفسها التي يستخدمها هذا الأخير لسلب إدعائها بلوغ المطلق. إن التحول الجدري عن هيجل هو الذي يحقق للفلسفة حريتها من التجريد. إن العصر الجديد يَفترض فلسفة جديدة، فلسفة المستقبل التي تكون للإنسان ومن أجل الإنسان، وتحقيق هذه الفلسفة يتطلب أولاً هدم أسُسْ الفلسفة المثالية، الفلسفة المطلقة، فلسفة هيجل. إن غربة الإنسان في هذه الفلسفة لأنها السياج العقلاني الذي يَحتمي فيه الهذيان الديني الذي تكمن فيه غربة الإنسان الحقيقية. هدم كلتا الغربتين معناه تحرير الإنسان وماهيته من الأوهام، أوهام غربته في الفكر المجرد، وغربته في هذا الكائن المجرد المتعالي الذي سلب ماهية الإنسان في جوهره.

تتحقق الأنسنة لما يسترجع الإنسان ماهيته المسلوبة في الدين والفلسفة النظرية. إن الوجود المباشر اللامتعين البداية غير المفترضة كما يزعم هيجل. يتساءل فويرباخ كيف

1 - Philippe Sabot « Héritage de Feuerbach » Ibid. P.47.

يمكن أن نفكر في هذا الوجود؟ والحال أننا كما هيجل استطعنا التفكير فيه والتفكير يستدعي إضفاء مقولات العقل عليه، فالتفكير لا يمكن أن يكون إلا بواسطتها،هذا ما يؤكده هيجل. إن هذا الوجود اللامتعين، الخالص، المباشر الذي هو في هوية مع ذاته فقط لا يكون التفكير فيه إلا بهذه المقولات: المباشرة، اللاتعين، الهوية. معنى هذا الوجود ليس وجودًا خالصًا من كل محتوى مادام أنه يحمل في جُوانيته هذه المقولات، وهذا التحديد، وهذا التعين. إنها تفقده هذا الأخير التجريد الخالص. هكذا ينكشف تناقض السيستام الهيجلي، فبالنسبة لفويرباخ ليست الصحة أو عدم صحة التفكير المجرد الذي قادنا إلى الوجود الخالص، وإنما هي أن الوجود الخالص ليس وجودًا بحال من الأحوال، إنه العدم المطلق، لذا كيف يُمكن استنباط العالم الواقعي الحي من العدم؟.

إن الوجود الواقعي الملموس هو وحده ما يمكن التفكير فيه، وعلى العكس من ذلك العدم هو الذي لا يُمكن بحال من الأحوال التفكير فيه، فالتفكير هو التفكير بشيء ما محدد. إن الديالكتيكي الهيجلي أسير الفكر المجرد. إنه ديالكتيك الشكل والمظهر فقط.

إن الأساس الأنطولوجي للمنطق الوجود والعدم، هو أساس فارغ من أي محتوى، لذا حركة التناقض فيه حركة شكلية، وبسبب ذلك ينهار كل السيستام الهيجلي. إن نقطة انطلاق الفلسفة الهيجلية تعاني من تمزق عميق، وهذا التمزق هو ما جعل النسق كله ليس سوى برهنة شكلية للمطلق قبل أن يعطي هيجل لأفكاره المنطقية شكل الموضوعية العلمية، كانت الفكرة المطلقة بالنسبة له يقينًا، والحقيقة المباشرة.

إن القطيعة الحادة مع الهيجلية تعتمد أساسًا على إعادة صياغة مبدأه، وحدة الفكر والوجود، جاعلاً من الوجود فكرًا وليس شيئًا آخر غير هذا الفكر. إن إعادة صياغة مبدأ هوية الفكر مع الوجود تبدأ أولاً حسب فويرباخ بنقد مقولة الوجود في المنطق الهيجلي، وبعدها بلورة هوية جديدة لمقولة الفكر، وتبعًا لذلك برهن أن الفكر ليس إلاّ شكلاً من الأشكال الأخرى المحددة للوجود، فالفكر أصبح هنا مجرد تابع وليس وجودًا في حد ذاته.

هكذا يجعل فويرباخ للفكر وللوعي أشكالاً محددة ونسبية، هنا الهوية المطلقة بين الفكر والوجود تفقد معناها. والآن أصبح الفكر شكلاً واحدًا من الأشكال الأخرى للوجود. الآن أصبح الفكر يتعاطى واقعيًا مع الوجود الحقيقي، وليس الوجود المطلق، إنما صفة الوجود تنطبق فقط على الموجودات الجزئية المحددة. إن صفة الوجود تنطبق فقط على الموجود هذا أو ذاك، المحسوس في الواقع. فوحدة الفكر والوجود في فلسفة فويرباخ هي وحدة هذا الموجود الجزئي أو ذاك مع معرفتنا، وأساسها ليس الفكر المجرد، وإنما الحواس. والبداية الصحيحة للفلسفة هي الوجود الحسي الفردي.

٣) فيورباخ ونقد أسس فلسفة التجريد واللاهوت :

إن الممثل الحقيقي للفلسفة النظرية هي الفلسفة الهيجلية، ففيويرباخ لا يعتبر فلسفته نتيجة حتمية للتصور الهيجلي حول المطلق وحضوره في العالم فقط، وإنما فلسفته هي على الضد من فلسفة هيجل. الفلسفة تدعي امتلاك الحقيقة الماهوية للدين.

إن الفلسفة لحظة حضور العقل، أما الدين هي لحظة حضور الرمز، وحضور الخيال، بل الفلسفة الهيجلية تدعي أن لا فرق هناك بين الفلسفة والدين، فالاختلاف هو اختلاف في الشكل وليس اختلافًا في الجوهر، فالمحتوى متطابق، فقط التعبير يختلف، فالخطاب الديني يخاطب عن طريق الصورة، والخيال، والحس، بينما الخطاب الفلسفي يُعلي من شأن التصور، والفكر، الفلسفة هي حضور للتصور، بينما الدين هو حضور للتمثلات.

لكن ما يهم أن الاختلاف النوعي لا يحضر في المعنى، ولكن يحضر في مستويات التعبير. إن أولوية الفلسفة وعلوها على الدين لأن خطابها عينُ موضوعها.فوعيها يساوي وعيها الذاتي، بينما الدين يدرك الموضوع نفسه فقط من خلال شكله أو صورته، هذا التعارض بين المحتوى والخطاب يجعل وعيها الذاتي لا يتساوى مع وعيها، لذا مهمة الفلسفة تحويل الخطاب الديني إلى تصور. إن هذا التحويل ليس مجرد ترجمة، لأنها تفترض تماثلاً للمعنى، وهذا صحيح، لكن أيضًا تفترض تساوي الخطابين؛ غير أن هيجل يضع الفلسفة فوق الدين. لذا هذه الأخيرة هي التي لها قدرة تحويل الصور الدينية إلى تصورات. الفلسفة لا تعتبر الخطاب الديني رمزًا للخطاب الفلسفي، ولكن تعتبره صورة حسية للفكر والتصور. بمعنى أن الفلسفة ليست وعي اللاوعي، أي الدين، لكن هي الوعي الذاتي للوعي الديني، وهذا ما يُبقي الهوية لمحتواها ولموضوعها.

بالنسبة لهيجل التناقض كوني الهوية وفق مبدأه: "لا يوجد شيء في السماء ولا في الأرض، لا يحتوي في ذاته الوجود والعدم"، ومن هنا يمكن أن نتساءل هل التناقض في الماهية أم في الشكل؟ بمعنى هل هذا التناقض موجود في هوية الشيء ذاته، أي في الحقيقة الواقعية أم في مستوى الفكرة حول هذه الحقيقة الواقعية؟ بالنسبة لهيجل الموضوع ليس إلا محطة من محطات تطور الفكرة. لذا لا يمكن الفصل بين الشكل والمحتوى. فالماهية ليست مستقلة على أشكال تَمظهرها أمام الذات العارفة، لذا ليس هناك تناقض مطلق بين الذات والموضوع، ما دامت موضوعية الموضوع لحظة من تطور الفكرة، وكأن الذات تتخارج عن ذاتها وتتموضع في الموضوع.

يقول هيجل : "الطبيعة هي الفكرة في شكل وجود الآخر، وكأن الفكرة تسلب ذاتها في الطبيعة، فالطبيعة ليست مستقلة عن الفكرة إلا بشكل نسبي، أي في الوجود الموضوعي خارج الفكرة. إن الفكرة تحقق تخارجها الذاتي في الطبيعة، فالفكرة كما هي في ذاتها هي الفكرة، وكالآخر لذاتها هي الطبيعة. كذلك الطبيعة لذاتها هي الطبيعة، لكن كالآخر لذاتها هي الفكرة."[1]

هنا يظهر المحتوى العميق للحركة الجدلية الهيجلية. السلب هو الحركة الخلاّقة لتحديدات المحمول والموضوع من خلال هوية الاختلاف. إن الصيرورة الدياليكتيكية للهوية في الاختلاف، هي التي تحافظ على الطابع الخلاق للسلب. إنه الذي يُحقق الإغناء الذاتي للموضوع. إن التجريد هو حذف واحتفاظ في الوقت نفسه. الأشكال تنحل أما الماهية فتبقى. ما يُحذف لا يتحول إلى عَدَمْ. والعدم هو ما هو مباشر، الشيء المحذوف هو الشيء الذي لا يكون، وهو محصلة أو نتيجة للموجود. إنه يُحافظ على طابع التحديد.

إن التجريد الديالكتيكي دائمًا يجد البداية، المباشر، التناقض، السلب. إنها الأدوات التي بها تحقق الفلسفة النظرية مُهمتها، وهي المحافظة على الهوية في الاختلاف. ففويرباخ يُعارض الفلسفة النظرية الهيجلية عن طريق النقد المؤسس على مفهوم القلب أو القلب العكسي، بالنسبة إلى "هيجل فهو يتحرك أدبيًا على رأسه، ولا يعني ذلك أن قدميه في الهواء، هذا ما يفترضه على الأقل وجود أرضية متماثلة يُمكن من خلالها وفق القانون الخاص وضع القدمين المادتيتين أو هذا الرأس التجريدي الخاطئ، لكن في الحقيقة ليس له أصلاً رأس حتى يكون له قدمان، هذا لأن ليس له أرضية حقيقية يقف عليها، إنها أرضية تجريدية، كذلك التحولات التي تطرأ على الرأس وأطراف الجسد تحولات تجريدية"[2]. إن الأنثروبولوجيا الفويرباخية ليست فكرة أخلاقية بل هي علمية لذلك هي أنسنة إلحادية، ما يسمح للأنثروبولوجيا من التحول من النظرية إلى هدف عملي أو نظري أي (الأنسنة)، الإلحاد الفويرباخي يعني اللادينية الذي يفرض تجاوز القطيعة مع الدين. إن الإلحاد هو السلب لهذه الأخيرة لا بالمعنى الهيجلي.

فالإلحاد هو موقف محدد ضد دين معين، فنوع هذا الإلحاد يجد معناه داخل ومن خلال الدين، عكس الإلحاد الذي يتجاهل كل دين، والذي لا يرى أي مصلحة في معرفة تناقضات الفكر الخيالي. ما دامت العلمية تستدعي الفصل عن كل ما هو خيالي ميتافيزقي.

1-, Hegel, Encyclopédie des Sciences Philosophiques.I.la Science de la Logique, s88,TWA8,188, tr/Fr B.Bourgeois, P.351

2- Ludwig Feuerbach « l'Essence de Christianisme», préface du traducteur, éd. Cit, p. 32

أما على العكس فلإلحاد الفويرباخي يجد موضوعه واهتمامه في موضوعات الدين، ما دامت ماهية الإنسان تتكشف في الدين تتكشف ماهية حقيقة الإنسان، هدف فويرباخ استرجاع المحمولات الإنسانية التي صُودرت عن طريق السلب، والهذيان الديني لتحويلها إلى ذواتها الشرعية، أي الإنسان الفردي والإنسان كجنس.[١]

بالنسبة إليه يجب إغناء الأرض بكل ما سرقته السماء، الكنوز السماوية. الآن بالإمكان استرجاعها إلى مالكها الحقيقي وهو هذا الإنسان الأرضي، بالنسبة لأنثروبولوجيا فويرباخ الإله الحقيقي هو الإنسان، لكن ما الملكات الأساسية لهذا الإله الجديد الذي بشّر به فويرباخ (الإنسان كنوع أو الإنسان الطبيعي الفردي.)؟.الإنسان الفريرباخي هو قبل كل شيء هو إنسان الرغبة الحسية الذي يعيش من خلال إنتاجه الإنساني لرغباته الخاصة (الخبز، الخمر). الإنسان الفويرباخي هو الإنسان الطبيعي الذي يتلذذ طبيعيًا بهذا الأكل والشرب، هذا هو الإنسان الفويرباخي عكس الإنسان السابق، إنسان الديانة المسيحية الذي يأكل الخبز ويشرب الخمر لا لتحقيق لذة طبيعية وإنما لتحقيق رغبة سماوية (الخبز لحم المسيح، والخمر دم المسيح)[٢]. هذه المصادرة الدينية تحول طبيعي إلى مفارق، إلى عنصر تجريدي لا حسي. وبذلك يفقد الإنسان وجوده الطبيعي، وماهيته الخاصة، الإنسان قبل كل شيء هو الإنسان الحسي الذي يستمتع بالرغبات الحسية (الأكل، الشرب، الجنس) أما في الدين حتى الجنس يفقد وظيفته الطبيعية حيث يتحول إلى وظيفة سماوية[٣] تحقق غاية إلهية، كمريم العذراء التي تحقق ليس المحبة الطبيعية بل المحبة فوق الطبيعية، إن الحب الفويرباخي هو الحب الأنثروبولوجي، أي الذي يستهدف الآخر من حيث طبيعته، ومن حيث جنسه، معنى ذلك إن الطبيعة المحددة للإنسان تتحدد وفق قوانين الجنس الطبيعي نفسه وليس قوانين فوق طبيعته سماوية أو إلالهية. هكذا يفقد الجنس طبيعته ومظهره الحسي، غير أن الإنسان الفويرباخي لا يكتفي فقط بتحقيق وظائفه البيولوجية التي تحقق السلب الإيجابي أو القلب العكسي للهذيان الديني (المسيحية). تحقيق الوظائف البيولوجية ليست هي كل ما تحمله المحمولات الماهية الإنسانية من غنى.

---

١ - حنا ديب : هيجل وفويرباخ، دار الأمواج، بيروت لبنان ط.١. ١٩٩٤. ص. ٢٧١.

٢ - اهذا المعني وارد في إنجيل متي : وفيما هم يأكلون أخذ يسوع الخبز وبارك وكسر وأعطى التلاميذ وقال خذوا كلوا هذا هو جسدي، واخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلاً اشربوا منها كلكم، لأن هذا هو دمي الذي للعهد الجديد الذي يسفك من اجل كثيرين لمغفرة الخطايا) "مت٢٩: ٢٦-٣٠

3- Ludwig Feuerbach « l'Essence de Christianisme» Ibid. P.264.

إن الإنسانية تتمظهر خاصةً من خلال الوظيفة الثقافية التي صادرتها المسيحية، بالنسبة إلى فويرباخ تحدد الثقافة الرغبة في تحقيق الاستمتاع، لذا كانت العين الأداة النظرية لها، والفلسفة تبدأ من علم الفلك (السماء تذكرُ الإنسان بمساره الذي هو ليس فقط تحقيقه الفعل لكن أيضًا الاستمتاع.﴾[1] فويرباخ يقدم الاستمتاع على الفعل، الاستمتاع على العمل، فبالنسبة إليه هذا التفضيل للاستمتاع في احتقار التطبيق أو العمل لأن فويرباخ لا ينظر إلى الفعل في ذاته وإنما ما يحققه للذات أي الإنسانية من إشباع ورغبة، فالشيء لا يهم بقدر ما يهم ما يُحققه للذات من الإشباع، إذًا ما يَهُمُه هو النتيجة، إذا الخبز، والخمر، والحب والاستمتاع.﴾ تنطلق كلها من أرضية واحدة هي الطبيعة (la nature)، إن الإنسان نتاج الطبيعة ولا يتحقق وجوده إلا بالطبيعة، فالطبيعة هي البداية والنهاية.

كما أن هناك الطبيعة النوعية للإنسان التي تكون لا متناهية. إنها العقل والإرادة والوجدان. هذه القوى، وهذه الخصائص هي كمالات الوجود الإنساني. فالإرادة والحب والتفكير أسمى قدرات الإنسان، ومن خلالها استقل الإنسان عن طبيعته الحيوانية، إنه يسمو على تناهيه وعلى فردانيته من خلالها. يقول فويرباخ : "الإنسان وُجد ليُفكر وليحب وليريد فنحن نفكر من أجل التفكير لكي نكون أحرارًا، فالوجود هو الوجود من أجل التفكير والحب والإرادة، هذا وحده هو الحقيقي والكامل والإلهي الذي يوجد من أجل ذاته، فالثالوث المقدس في الإنسان الذي يسمو فوق الإنسان الفردي يمثل وحدة العقل والحب والإرادة."[2]

بهذه الكمالات يتجاوز الإنسان فردانيته، هذا التجاوز ذو اتجاهين: أحدهما اتجاه الطبيعة، اتجاه العالم المحسوس، والاتجاه الآخر نحو الناس من خلال الحب، تتضح هذه الشمولية في لانهائية الإنسان من خلال الفن والدين والفلسفة والعلم، يقول فويرباخ في المبادئ الأساسية لفلسفة المستقبل: "إن الحب والإدراك الحسي يأخذان الإنسان من ذاته وإن الإنسان يتعدى حدود فرديته وتتضح طبيعته الحقيقية من خلال الفن والعلم والتعرف على موضوعية الأشياء الخارجية، لأنه يُشبع دوافعه، ويكمل طبيعته ويُدرك محدوديته. فقط من خلال علاقاته مع الآخرين من الناس، ويتعرف على نفسه في النوع. فالإنسان الفرد لا يعرف كل شيء بذاته، أما النوع فنعم."[3] إن مفهوم التجريد (Abstraction) هو المحرك للقلب العكسي الفويرباخي. كل تجريد هو في طبيعته إتمولوجي استنباط. بالنسبة لفويرباخ التجريد

---

١ - أحمد عبد الحليم عطية :الإنسان في فلسفة فيورباخ. دارالتنوير للطباعة والنشر،بيروت،لبنان، سنة ٢٠٠٨. ص١٤٢.

2 – Ludwig Feuerbach « l'Essence du Christianisme » Ibid. P.2.

3 – Ludwig Feuerbach « Manifestes Philosophique» Ibid. P ,132..

والاستخلاص يوجدان فقط في ما هو حقيقي، وفي الحقيقة الحسية الواقعية والمادية، أما فعل التجريد فهو عزل المحمول من تحديده الحقيقي أي اليقين الحسي.[1]

عملية العزل هذه تتحدد عن طريق الحكم الحملي. كل تجريد شرعي يكون فقط مأخوذًا من محمول يعود في الأصل إلي موجود في الواقع، مثل هذه شجرة، ليكون التجريد حقيقيًا لا بد أن يبقى الحكم في إطار ما هو واقعي، بمعنى أن المحمول المعزول عن طريق التجريد لا حقيقة له إلا بالنسبة للعلاقة التي يأخذها لا مع موضوع المنطق اللغوي، ولكن مع الشيء المطابق للإدراك الحسي. حسب فويرباخ الخطاب العلمي يجب أن يستهدف قَلّب العكسي للتجريد الخاطئ أي التجريد الهيجلي الذي جعل المحمول موضوعا.الشيء المعين مجرد فكرة للعلاقة المحمول الموضوع، علاقة أصبحت تمثل المنطق اللغوي خالص. حيث الكلمات ليست مجرد كلمات، والأشياء ليست الأشياء.

إن التجريد يسمح بتحرير الأحكام من قبضة الحقيقة المادية الحسية، بحيث تكتفي بحقيقتها التجريدية، هذا الانشطار بين الدال والمدلول يتحول إلى علاقة مستقلة من كلمة إلى كلمة ومن دال إلى دال، هذا الهذيان اللغوي هو محض نتاج فلسفة التجريد، أو الفلسفة النظرية.

بتحرر الكلمات تُصبح فيها الكلمة أقوى من حقيقتها الواقعية. في التجريد لا ندرك عن أي شيء نتكلم، عن الشيء الحقيقي فقط نتحدث عن الصورة والفكرة الحاضرة

التناقض يظهر عندما نتناسى الشجرة الحقيقية، الحيوان الحقيقي، الدار الحقيقية، هذه الموجودات الحقيقية باقية حتى ولو كان الإدراك غائبًا. إن التناقضات لا تتعلق بهذه الصور وخصائصها الحقيقية، لكن التناقض في الفلسفة النظرية على العموم وفي فلسفة هيجل على الخصوص يتعلق بالتتابع الزمني لصُورها والكلمات اللغوية المعبرة عنها. إن القاعدة المشتركة بين الدّين والتجريد هو الالتباس الحاصل بين الشيء وصورته، فهيجل يأخذ الهذيان الديني نفسه الذي يؤكد تطابق المتناقضات عندما يُحول الشيء إلى صورة فقط للشيء، هذا هو ما يفعله رجل الدين الكاثوليكي نفسه عندما يُحول الخبز والخمر الواقعي إلى صورة خيالية هما لحمَ ودمَ المسيح، بمعنى أن الأشياء ليس كما هي في الحس، هذا التناقض الماهوي بين الحقيقي والخيالي هو موضوع الإيمان عند المؤمن وموضوع التجريد عند هيجل.[2]

1- Ibid. P.41.
2- Ludwig Feuerbach « l'Essence du Christianisme » Préface du traducteur. P.47.

فويرباخ يجعل من الفلسفة الهيجلية قراءة جديدة للدّين في ضوء العقلانية. وفي الحقيقة هي قراءة من وجهة نظر اللاعقلانية، أي من وجهة نظر الخيال. التجريد جوهره هو الخيال، هذا النقد الفويرباخي قد يظهر كأنه مفارقة، فبعض النقاد يرون أن هذا النقد يليق بفلسفة شلنج أو ياكوب بيهه، مادام أن هيجل قد رفض الميثولوجيا، لذا الحكم على أن فلسفته هي للخيال،(l'imagination). بالنسبة لفويرباخ فلسفة فهم الخيال هو المكان الطبيعي للذاتية التي تفترض تجاوز المتناهي والمحدود، ما داما يتأسسان على الهوية والديمومة. التخيل هو التحرر من الهوية والديمومة بالتجميع الكيفي للمعطيات الحسية بحذف خصائصها الحسية والمحددة. هذا الحذف يُحقق العبور من الحس المتناهي إلى المتخيل اللامحدود. هذه طبيعة الخيال التي تحقق وجودًا وهميًا لما هو موجود ولما هو غير موجود، لأنها ليست موضوعية لكن ذاتية، من هنا فهي ليست محدودة، كل هذه الخصائص التي ذكرناها للخيال موجودة في التجريد الهيجلي، ما دام التجريد تجاوزًا للمعطيات الحسية، والمتناهي في اللامتناهي، كأن لا تكتمل حقيقة المتناهي إلا في اللامتناهي الزائف الذي هو محصلة التحديدات المتناهية، هذه المعطيات هي التي قادت فويرباخ إلى إدانة فلسفة التجريد. إن الخيال هو جوهر فلسفة هيجل. إن هيجل يسلب الواقع من أجل السّراب. السلب الهيجلي ليس هو المعجزة التي بواسطتها يتحقق وحدة الواقع بالفكر، وفي الحقيقة هذا السلب هو إفقار وليس إغناء للفكر والواقع الإنساني.[1]

إن تصور هيجل للسلب على أنه الإطار الخلاّق للموضوعية الإنسانية صحيح لكن ما يؤسس عليه هذا السلب هو الخاطئ، أي أولوية الفكر على الواقع، الدين على الطبيعة، ففي الدين تصور الله كنتاج لخيال الجنس البشري يتم وضعه ككائن حقيقي متعالٍ خارج الذوات الحقيقية التي أنتجته، هذا هو عين الإفقار للذات الإنسانية، هذا نفسه ما يظهر في التجريد الهيجلي الذي يُحول الوعي الإنساني بالألوهية كوعي ذاتي مقدس. لاشك أن هيجل حاول جاهذا يائسًا أن يُقيم ضربًا من الهوية بين الوعي الإنساني والوعي الإلهي، إلا أن محاولته هذه كانت دائمًا تقيم ضربًا من الإزدواجية بين الوعيين، بين الوعي الأولي والوعي الثانوي، هذا ما يظهر عند تحليلنا للوعي اليائس، فبنسبة له الوعي الأهم ليس الوعي الممزق بل الأهم هو علة هذا التمزق، وهو الله أو الكائن الآخر المتعالي.

في الأخير هيجل يُقيم هوية بين الوعيين في المعرفة المطلقة مادام الوعي في الأخير يتطابق مع الوعي بالذات بسلب الأشكال الموضوعية داخل وحدة هوية الاختلاف، هذه

1- Ibid. P.50.

الهوية للوعي الذاتي دائمًا تُقيم تعارضًا لتطور كلا الوعيين رُغم إقامة هذه الهوية المتحدة، بالنسبة لـه المعرفة المطلقة هـي المعرفة بـالمطلق أو الـوعي بالـذات الإلهيـة. إن السـلب الهيجلي هو تأكيد لتطابق الحقيقة الإنسانية بالموضوعات المتخيلة، هذه الأخيرة تُشكل ما هو الحقيقي والمهم، الماهية الإنسانية عوضًا أن تحقق ضربًا من الإغناء الذاتي أثناء تطور مسار الوعي البشري، هذه الذات تفقد مُحتواها. إن الوعي بالذات للفلسفة الهيجلية هو إفقار، مادامت تفقد حقيقتها، ومعناها، ووجودها، وما دامت تتحول إلى ملكية شيء آخر. إن الحقيقي أصبح في الفلسفة الهيجلية دون هوية، لقد فقد حقيقته، وأصبح حقيقيًا فقط لذاته، إنه يستمد حقيقته من معنى وماهية خيالية.

إن فويرباخ وفرويد تتطابق نظرتهما حول ماهية الوعي في الفلسفة النظرية، "التجريد الهيجلي هو في حقيقته التطور الطبيعي للحقيقة الدينية". إن طبيعة الخيال هو التجاوز لكل حسي وفي الوقت نفسه هو الاحتفاظ به مثلاً لا وجود لرغبة اللاموت أو الخلود لو لم تكن مؤسسة على الموت الواقعي الحقيقي، فوجود الموت الفردي هو الذي خلق في الخيال الرغبة في تجاوزه عن طريق الرغبة في الخلود. كل موضوعات الخيال الديني تتأسس من خلال الحقيقة الواقعية، ولحظة تجاوز هذه الحقيقة الواقعية هي لحظة الاحتفاظ بها، فالدين تحقيق لهذه الرغبة في التجاوز ويكون عن طريق فعل المعجزة، وكل ما هو موجود في السماء والأرض هو بفعل الإعجاز (le miracle) كل شيء هو معجزة بالنسبة لفويرباخ. التجريد الهيجلي ما هو إلا قراءة للخيال الديني من خلال زاوية الخيال.

في الأطروحة الهيجلية نجد المقولات الأساسية للفنتازيا الدينية. إن فويرباخ عندما يُحلل حقيقة المعجزة أو منطق المعجزة في الدين إنما هو يكتشف آلية هذا المنطق من خلال المقولات الهيجلية. فالديانة تضع إشكالية الأم العذراء والعذراء الأم كيف يمكن الجمع بين حقيقتين العذرية والأمومة؟. إنه احتفاظ وجمع بين متناقضين، مريم لابد أن تكون عذراء وأم في الوقت نفسه ليس وفق القوانين الطبيعية، العذراء ثم الأمومة، فالمعجزة هي السلب عينه، هي احتفاظ وتجاوز، أي مريم العذراء التي لم يقترب منها كائن بشري التي هي أم في الوقت نفسه. إن المعجزة الدينية لها المفهوم نفسه ووظيفة السلب الهيجلي الذي هو تجاوز واحتفاظ في الوقت نفسه هي التوحيد بين المتناقضات، فالسلب الهيجلي يُجيب بطريقة المعجزة الدينية نفسها، فهو يحتفظ في الوقت نفسه بالحقيقة الحسية المتناهية وتجاوزها الخيالي، أي اللامتناهي. إن المعجزة الدينية هي السلب، وهذه الأخيرة هي المعجزة التجريدية ما دامت تتطابق مع الإتمولوجيا، فالتجريد الهيجلي على الخصوص ليس إلا الصورة المشوهة للصورة الدينية.

إن النقد الفويرباخي للتجريد الهيجلي هو تفكيك كلي لمنطلقات الخطاب الهيجلي. وفويرباخ إنما يُعيد الخطاب الهيجلي إلى أصوله اللاعقلانية أي الهذيان الديني. فالفلسفة الهيجلية ليست إلا قلبًا للعالم الواقعي، وهذا هو التشويه الذي يُضفيه التجريد للحقيقة الواقعية عن طريق سراب الفلسفة النظرية. إن النقد العنيف الذي وجهه فويرباخ للتجريد الهيجلي أراد من خلاله تحرير الفكر من قبضة الخيال الديني وحضوره في الخطاب الهيجلي. إن تحرير الفكر من هذا الخطاب هو تحرير للوعي الإنساني من سلطان التجريد وهذيان الخيال الديني.[1]

٤ - من النقد إلي نقد النقد أو من المثالي إلي الانثروبولوجي المادي:

في التحليل السابق لاحظنا الطابع السلبي للنقد الفويرباخي والذي يتمظهر في مستويين: مستوى الديني وتجريد المثالي. لكن الأصالة الفويرباخية لا تتمثل فقط في النقد الموجه للفلسفة التجريدية والدين، و**إنما النقد الفيورباخي يهدف إلى نقد النقد، أي القلب العكسي لكل من فلسفة التجريد والدين**. إن القراءة البسيطة وغير المتعمقة في النصوص الفويرباخية خاصة ماهية الدين تجعل من هذه الأخيرة أطروحة نقدية فقط، بينما **كان هدف فويرباخ ليس الوقوف فقط في مستوى الخطاب النقدي، فالسلب الفويرباخي هو سلب ووضع في الوقت نفسه، إنه سلب يهدف إلى علاج مرض التجريد الذي ينخر العقل والوجدان الإنساني**، ويظهر التصور واضحًا عند فويرباخ في مقدمة كتابه ماهية المسيحية ١٨٤١، ففلسفته تستهدف تطهير العقل بمياه الحقيقة الخالصة التي تختلف عن مياه التعميد للفكر الفاسد. إنه يستهدف وضع الصورة الحقيقية للماهية الإنسانية. كما يستهدف وضع المبدأ السقراطي (اعرف نفسك بنفسك.) **إن الطابع الإيجابي للنقد الفويرباخي يستهدف الكشف أمام الإنسان حقيقة اغتراب ماهيته في كائن متعال أو في الفكرة المطلقة**. إن العودة لحقيقته الواقعية لا تتحقق إلا بالقلب القلب أو القلب العكسي، أي الخطأ يختلف عن الحقيقة وهي الحقيقة المقلوبة، هذا يعني أن بقلب الخطأ هو تأكيد للحقيقة، أو أن الخطأ هو حقيقة مقلوبة، فالخطأ المقلوب هو الحقيقة. **إن خطاب الحقيقة هو قلب للخطاب الخطأ**.

إن قلب الدين هو قلب للدين والتجريد الهيجلي. إن معرفة الإنسان للإله هو معرفة الإله لنفسه، هذه تفرقة متناقضة بقلبها توجد الحقيقة. معرفة الإنسان للإله هو معرفة الإنسان لنفسه ولماهيته الخاصة. يكفي فقط كما بينا عن طريق قلب العلاقات الدينية وتأويلها أن نضع نهاية لكل دين معطى كوسيلة. الشيء نفسه بالنسبة للدين "يكفي فقط وببساطة كما بيّنا وعن طريق

1 - Philippe Sabot « Héritage de Feuerbach » Les presses Universitaires de Septentrion. 2008. P.23.

قلب العلاقات الدينية وتأويلها دائمًا كنهاية، مادام الدين يقدمها كوسيلة يرفعه إلى مستوى السبب الرئيس الذي يكون بالنسبة إليها محمولها الثانوي إلى مشروط، هذا من أجل تبديد الوهم لتتعرف العين على نور الحقيقة دون مُوارية أو تدليس."[1] هذا يعني أن العلم ليس موضوعه الأساسي سوى هذا الوهم (les Illusions). إنه الوهم الموضوع من جديد على قدميه، معنى هذا إرجاعه إلى أساسه الحقيقي وأرضيته الواقعية. التأسيس حسب فويرباخ هو وضع المحمول للموضوع الحقيقي، فصل الذات الفردية العينية عن الكلية التجريدية للنوع للتمييز بشكل كامل بين الذي ينتمي للنوع اللامتناهي والذي يعود إلى الفرد المتناهي المحدد، ومكان هذا الفصل والتحديد هو الحكم التحليلي الذي لا يلتبس عليه أنا وأنت الحقيقي مع الآخر المتخيل.

العمل الذي يعود إليه هو تحليل المحمولات الحقيقية للفرد، إذًا النوع هو إثبات وتأكيد للفردانية كذات عددية لكل المحمولات، هذه الكليات تشكل النوع كما كان مثالي الحامل للانهائية، لكن في واقعية الفرد المتناهي والحسي المحدد في الزمان والمكان.

هذا الخطاب التحليلي هو قلب للخطاب الجنيس للدين والتجريد[2]. إن هذا الخطاب الفيورباخي ليس له بعد نظري فقط، بل له بُعد تطبيقي، فبقلب الحقائق الجنيسة الدينية والتجريدية هي بوضع دين جديد هو دين الإنسان هو الإنسانية. إن التحليل الأنثروبولوجي يقدم نظرية جديدة للإنسان، يقول فويرباخ : "الأنثروبولوجيا تستهدف نقد الدغمائية وإرجاعها إلى عناصرها الطبيعية المنبثقة من الإنسان إلى أصلها الداخلي والمركزي (الحب). الأنثروبولوجيا هي إعادة وضع ماهية الإنسانية المغتربة في هذا السلب، لذا الأنثروبولوجيا هي الحقيقة المقلوبة للخطأ الثيولوجي."[3] فهي لا تقف فقط في مستوى النقد الفارغ، وإنما تَعد بتأسيس ديانة جديدة هي للإنسان ومن أجل الإنسان. إن الأنسنة هي نظرية الإنسان الذي يؤكد لغايات تطبيقية قيمهُ، إنها التي تحقق استقلاله أمام كل غاية، فويرباخ الإنسان لا يُحقق نشاطه إلا من خلال غاياته المتناهية، هذا النشاط النضالي لتحقيق غايات وهمية (الله)، حقيقية (الإنسان). القيم العليا للإنسان، الإنسان الكلي، الصورة الدينية لله هي الصورة المقلوبة للإنسان الكلي، ديانة الإنسان تنبع من الأنثروبولوجيا وهي التي تسمح للإنسان بتحقيق ماهيته. إن النظرية الأنثروبولوجية تحقق للإنسانية استقلالها عن طريق هذا القلب العكسي. إن حقيقة العلاقة الجماعية هي علاقة الأنا (بالأنت)، إن (الأنت) ليس هو (الأنت) الوهمي، إنما (الأنت) الحقيقي لأنه يطابق الإنساني. هذه الديانة الجديدة (الأنسنة)

1- Ludwig Feuerbach « Manifestes Philosophique» Ibid. P.55.
2- Philippe Sabot « Héritage de Feuerbach » Ibid. P.21.
3- Ludwig Feuerbach « Manifestes Philosophique » Ibid. P.133.

هي الديانة الحقيقية والدائمة ما دام الإنسان على الأرض والمخلوق الوحيد الذي يملك الوعي بالذات. إن الأنثروبولوجيا تُفضي بالضرورة إلى ديانة (الأنسنة) وهي حصيلة القلب العكسي لديانة الله.

– إن الفلسفة الجديدة التي يُبَشر بها فويرباخ هي الحل الحقيقي حسب زعمه، لتناقضات اللاهوت. الآن هذا الحل أصبح ممكنًا بعدما بلغت الفلسفة النظرية ذروتها في فلسفة هيجل. تناقضات التجريد الفلسفي واللاهوتي هي ما يُمهد لتأسيس هذه الفلسفة الجديدة. يقول فويرباخ : "كان لهذه ﴿المبادئ﴾ كمهمة أن تستنبط من فلسفة المطلق أي من اللاهوت، ضرورة فلسفة الإنسان أي الأنثروبولوجيا، وأن يُؤسس نقد الفلسفة الإنسانية على نقد الفلسفة الإلهية."[1]

إن فلسفة المستقبل، تُؤسس مبادئها من خلال السلب العكسي لمقولات الفلسفة النظرية. ومادامت الفلسفة النظرية تتأسس على فعل التجريد، ففلسفة المستقبل هي السلب الخالص له. يقول فويرباخ : "من التناقض أن نريد التعرف على نور الواقع من ليل التجريد، لأن هذا يعني إثبات الواقعي في سلبه الخالص، ففلسفة المستقبل، فلسفة الإنسان تنطلق من الأشياء العينية ذاتها، وتعالجها كأشياء لا كأفكار مجردة، كما فعلت الفلسفة النظرية فلسفة هيجل، فعل التجريد يقتل الواقع. الفلسفة الجديدة تنشأ من الواقع الحي، تفحصه وتدرسه، لا كأفكار كلية ولكن كأشياء فعلية لكي نصل إلى الحقيقة."[2] ويعتبر فويرباخ أن الفلسفة علم لأنها تستهدف الواقع في حقيقته وشموليته. إن الحقيقة تقبع لا في الفكر المجرد بل في الوجود الفعلي (existence)، إنه معيار الحقيقة، ومادام الوجود الفعلي معيار الحقيقة، لذا الفكرة لا يُمكن أن تحقق ذاتها وحقيقتها في الفكر الخالص، كما زعم هيجل. صحيح أن الفكرة تحقق ذاتها، لكن ليس في الفكر الخالص، إنما في شيء مختلف عن الفكر. إنه اللافكر، إنه المحسوس ﴿le sensible﴾. إن المحسوس هو وحده الذي يُشكل الحقيقة الواقعية للفكرة. الحقيقي هو المحسوس، والعيني، والجزئي هو ما يُشكل بداية الفلسفة لا الوجود المجرد كما زعم هيجل، والمحسوس طبعًا هو كل ما هو موجود في الطبيعة، وبمعنى أصح، هو الطبيعة في كُلِيَتِهَا. إن موضوع الفلسفة الجديدة هو الطبيعة. ومادام الإنسان جزءًا من الطبيعة، نتاجها ذروة وجودها.

1- Feuerbach ‹Manifestes›» Ibid. P 128
2- Ludwig Feuerbach ‹Pour une Réforme de la Philosophie›Trad. Yannis Constantinidès. Edit. Mille et une Nuits. 2004 France . P.64

فالإنسان أكثر الكائنات واقعية. الإنسان هو الذي يحس، هو الذي يُفَكر، وليس العقل المطلق، والأنا "بينما قالت الفلسفة القديمة: وحدهُ العقلي هو حقيقي وواقعي، فإن الفلسفة الجديدة تقول بالعكس: وحدهُ الإنساني هو الحقيقي والواقعي، لأن الإنساني وحدهُ هو العقلي. الإنسان هو معيار العقل وليس العكس."[1].

الفلسفة الجديدة هي فلسفة الإنسان بكل تحديداته، وعلاقاته. إنه الإنسان الفرد، المتناهي الذي يحس ويشعر، العاطفي، المفكر. إنه الإنسان المتناهي الذي يحمل كل تعييناته، إنها الكلية الإنسانية. هذا الإنسان كذلك لا يتحقق وجوده إلا في علاقاته مع الناس الآخرين. الأنا الإنساني هو الأنا والأنت. يقول فويرباخ :"وجودنا الحسي، الفكري أو وجودنا العاطفي، الحسي، الإرادي، الفكري، هو بالطبع وجود إنساني. إنساني لأنه وجود يعتمد على غيره، وكوجود معتمد على غيره، فإنه يعتمد على الغير في الفكر وفي الوجود معًا. في الفكر يعتمد على الحواس، وفي الوجود الفعلي يعتمد على الطبيعة الخارجية وعلى الموجودات الإنسانية الأخرى. فقد الموجود بالفعل طبيعيًا يُفَكرُ، وبذلك يكون الفكر معتمدًا على الوجود الفعلي. إن الارتباط بين الفكر والوجود، بين ما هو في الفكر وما يوجد وراء حدود الفكر هو الإحساس، لا يوجد فكر دون إحساس، لا يوجد فكر دون أكل، وشرب وهواء. كذلك لا فكر موضوعي دون وجود آخرين يستطيعون أن يوافقوا على هذا الفكر"[2]. ما نستشف من هذا التحليل أن مبدأ الحسية والآخرية هما عمادا نظرية فويرباخ الإنسانية.

إن المنطلق هو مبدأ الحسية، هو الشرط لمعرفة الحقيقة. الحسية هي المحدد لما هو واقعي وما هو غير واقعي. ويضيف فويرباخ، إنها شرط إتباع أساليب العلوم الطبيعية. والتجريد يُزيفُ الحقيقة، أما العلوم الطبيعية فتجلي الحقيقة وتكشفها. إن منطلق هذه العلوم هو المعطيات الحسية الواقعية. يقول فويرباخ : "أنا بحاجة إلى الحواس كي أفكر قبل كل شيء، إلى عينين، أنا أُؤسسُ أفكاري بواسطة النشاط الحسي، فأنا لا أُوَلدُ الموضوع من خلال الفكر، إنما بالعكس أُوَلدُ الفكر من خلال الموضوع. وحدهُ يكون موضوعًا، ذاك الذي يقع خارج العقل."[3] ويضيف: "على الفلسفة أن تتحد من جديد مع العلوم الطبيعية، وعلى العلوم الطبيعية أن تتحد مع الفلسفة، هذه الوحدة المؤسسة في حاجة متبادلة، وضرورة داخلية، ستكون أكثر ديمومة، وأكثر سعادة وخصوبة من الزواج غير المتكافئ الذي وُجدَ حتى الآن بين الفلسفة واللاهوت."[4]

1- Ludwig Feuerbach ‹Manifestes› Ibid. P. 194
2- Wartofski , ‹‹Feuerbach›› Cambridge University Press, Cambridge, London, 1st, ed. 1977, P.365
3- Feuerbach ‹manifestes› P 102
4- Feuerbach ‹manifestes› P 125

إن الحواس les sens هي الوسيط الجامع بين وحدة الفكر والوجود، وبواسطة الحواس لا الفكر يتعرف الإنسان على واقعه. لذا مادية فيورباخ تختلف عن المادية التقليدية، فالفكر هو صورة الانعكاس لأشياء العالم المادي الذي لدى الفكر. يقول فيورباخ : "أنت لا ترى إلا بوصفك كائنًا هو نفسه منظورًا، أنت لا تحس بالتماس إلا بصفتك كائنا هو نفسه قابل للمس. العالم ليس منفتحًا بالكامل إلا لعقل منفتح، وحدها الحواس هي فتحات العقل. الفكر المنعزل، الفكر دون الحواس هو فكر دون إنسان، فكر خارجي عنه. إنها هذه الذات المطلقة، لا تستطيع ولا ينبغي أن تكون موضوعًا لفريق ثالث، والتي لهذا السبب نفسه وبالرغم من كل جهودها هي الوسيلة لبلوغ الموضوع والوجود/ إنها ليست أكثر كفاءة من العقل."[1]

1- Feuerbach ‹Manifestes› P 195

خاتمة

هاجم فويرباخ الفلسفة الهيجلية في إدعائها الأساسي، إنها الفلسفة المطلقة التي استطاعت تحقيق الهوية المطلقة بين الفكر والوجود، فويرباخ اعتبر هذه الهوية ليست سوى هوية صورية، إنها هوية الفكر مع ذاته أي هوية تجريدية، واستعاض عنها في فكرة الإنسان الواقعي المحتاج. ففي الإنسان الواقعي تتحقق الهوية الحقيقية بين الفكر والوجود، لذا نقطة انطلاق الفلسفة ليس الوجود المجرد، إنما الوجود المحسوس، ووجود الإنسان الواقعي كفرد بلحمه ودمه. إن هذا الوجود لا يُستنبط من الفكر، وليس هو لحظة من لحظات وعي الفكرة لذاتها، لذا موضوع الفلسفة هو الوعي بهذا الوجود.

إن مسار تطور الفكر الفلسفي عبر التاريخ هو مسار الوعي بهذا الوجود أي وجود الإنسان المحتاج المتألم. إنه مسار تطور وعي الإنسان بذاته، غير أنها تم إسقاطه خارج هذا الوعي، على شكل كائن آخر غير إنساني ومتعالٍ، من خلال هذا الكائن الآخر يعني الإنسان ذاته. لذا كل الفلسفات السابقة تُخفي حقيقتها الجوهرية، أي حقيقتها الأنثروبولوجيا وتجعل منها حقيقة متعالية ميتافيزيقية. هكذا حجّم فويرباخ الفلسفة إلى أنثروبلوجيا، وبالتالي وضع حدًا فاصلاً بين الفلسفة القديمة والفلسفة الجديدة، أي الفلسفة كميتافيزيقا والفلسفة كأنثروبولجيا. إن غاية الفلسفة عند فويرباخ أصبحت تلبية حاجات ورغبات هذا الإنسان الواقعي.

قائمة مراجع البحث.

١. فيورباخ : مبادئ فلسفة المستقبل. ترجمة إلياس مرقس، دار الحقيقة. بيروت، لبنان ١٩٧٥.

٢. حنا ديب : هيجل وفويرباخ، دار الأمواج، بيروت لبنان ط.١. ١٩٩٤

٣. فيورباخ: أصل الدين. ترجمة أحمد عبد الحليم عطية،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط١، بيروت، لبنان،١٩٩١.

٤. هيجل: فنومينولوجيا الروح، ترجمة: ناجي عونلي، المنظمة العربية للترجمة، ط.١ بيروت، ٢٠٠٦.

٥. عطية أحمد عبد الحليم :الإنسان في فلسفة فيورباخ. دار التنوير للطباعة والنشر ،بيروت، لبنان، سنة ٢٠٠٨.

6. Henri ARVON, Ludwig Feuerbach ou la Transformation du Sacré, F.U.F. Paris.1957.

7. Feuerbach, L : « l'Essence du Christianisme » présenté et traduit de l'allemande par Jean-Pierre Osier, Ed. Maspero, paris, 1982

8. Feuerbach, L : « Manifestes Philosophiques», Textes choisis (1839-1845), traduit, traduit de l'allemande par Louis Althusser, éd, Puf, Paris, 1973.

9. Ludwig Feuerbach ‹Pour une Réforme de la Philosophie›Trad. Yannis Constantinidès. Edit. Mille et une nuits. 2004 France.

10. Hegel, G.W.F. : le Phénoménologie de l'Esprit », traduit par Jean Pierre Lefebrore, Ed. Aubier, Paris, 1991.

11. Hegel,G.W.F. :« Encyclopédie des Sciences Philosophiques », liluairie philosophique J. Vrin, Paris, 1986.

12. Wartofsky H :Feuerbach ,Cambridge University Press, Cambridge, London, Melbourne ,1 st.ed.1977.